

الشعر والسينما يلتقيان في وثائقي تونسي

«على خطاوي الحرف» فيلم يصالح التونسيين مع الشعر الشعبي



يعدّ فيلم «على خطاوي الحرف» أول فيلم تونسي يوثّق للشعر الشعبي في بلد عرف عن أهاليه، بالجنوب خاصة، عشقهم اللامتناهي للشعر، لهم فيه تسليّة ومواساة، يتفاخرون بكل كلمة جديدة تفتقوها ويبتدعون طرائق لا حصر لها في نظم الشعر الشعبي، حتى أنّه صار أحد كنوزهم التي لا تنضب.

علي لسود المرزوقي والشاعر سالم بن عمران وصديق رحلتها العبدى بن بلغيث، وهو أكثر العالمين بمسيرتها ويحفظ أغلب القصائد التي نظمت طيلة عقود.

يكشف المشاهد عبر كاميرا العرقي عالم العكاظيات الشعرية، عبر مهرجان دوز الدولي للشعر الشعبي الذي يصنّف القائمون عليه على وصفه بالعكاظيات، نسبة إلى سوق عكاظ أين كان العرب قديماً يتبارزون شعراً ويتداولون كلماتهم كما تتداول العملات.

إنه مهرجان شعري أسسه المؤرخ التونسي محمد المرزوقي الذي عمل جاهداً على تاريخ الشعر الشعبي التونسي والتعريف به والبحث فيه، مع تأسيسه لمهرجان يحافظ على امتداده.

لقطات الفيلم تجمع بين توثيق بعض المشاركات في المهرجان وبين الحوارات المختلفة، بعضها مع الشاعر أيوب لسود المرزوقي الذي يبوح بأسرار عالم والده علي لسود المرزوقي، وكيف توارث عنه موهبته الفذة، وبعضها مع الشاعر سالم بن عمران الذي يسرد رحلة شاعرين تحاورا بالقصيد وتصادقا في الحياة والقافية. إلا أنها لقطات التزمّت جميعها بإطار مكاني واحد ألا وهو مدينة دوز بصحرائها وواحاتها وقلب المدينة النابض بالحركة السكانية والناطق شعراً وفناً.

وثقت كاميرا المخرج محمد صالح العرقي مشاهد عن عالم الصحراء وكيف يتطبع أهلها بطابعها، فقرام أقوياء أشداء لا يلبثون حتى في قول الشعر، الذي يأتي مُتسماً مع طبيعتها القاسية.

كما وثقت الكاميرا أيضاً، رغم اهتزازها في مواضع كثيرة وهناتها في اختيار زاوية التصوير ومدى مواظمتها للمشاهد، لقطات مُضحكة وأخرى مُبكية انعكس تأثيرها على من شاهدوا الفيلم في القاعة. فتنتاب المشاهد أحياناً نوبة من الضحك على لقطة بدا فيها ملحن عصامي كان له الفضل بأسلوبه الفطري الهزلي في تلحين «على الله»، تلك الأغنية التي تغوص في حياة الشعراء الخاصة.

حنان مبروك
صحافية تونسية

تونس - الشعر الشعبي التونسي، فن متوارث أبا عن جد، لكنه ظل لعقود كثيرة سجين المعرفة الشفوية، إذ لم تسع تونس ممثلة في جهاتها الرسمية إلى توثيق موروثها اللامادي الشعري بطرق عصرية كالكتب والتسجيلات الإذاعية أو التلفزيونية المُخصّصة حصراً للأرشيف.

لقطات الفيلم تجمع بين توثيق بعض المشاركات في مهرجان دوز الدولي للشعر الشعبي وبين الحوارات

وفي مغامرة مختلفة، اختار المخرج التونسي محمد صالح العرقي أن يعمل طيلة ثماني سنوات على توثيق جزء من هذا الموروث اللامادي الثري، ليقدّم للمشاهدين فيلماً من 90 دقيقة تحت عنوان «على خطاوي الحرف» عن سيناريو وبحث وكتابة لمرّان المدب. وقد اختارت المكتبة السينمائية التونسية أن تعرضه مؤخراً في إطار أسبوع «سينما الشعر وشاعرية السينما».

حي يرثي نفسه

سافر المخرج التونسي محمد صالح العرقي بالمشاهدين في رحلة شيقة إلى مدينة دوز (جنوب)، مصحوبين بموسيقى الفنان الشعبي التونسي بلقاسم بوقنة، ذلك الذي ارتبط فنه بأهالي الجنوب التونسي ويمكن اعتباره مؤقلاً لأعمال شعرية كثيرة بطريقته الفنية الخاصة. لتتعلق الحكاية مع ثلاثة من أهم أعلام الشعر العامي في تونس، وهم الشعراء

بين المرازيق والشعر الشعبي قصص وتاريخ

يعدّ الفيلم بداية رحلة المُصالحة بين التونسيين وشعرهم الشعبي، ذاك الشعر الذي يعتبره أغلب أهالي البلد هجيناً، بل وضرباً من الفلكلور ومن الكلمات التي لا ترتقي إلى مستوى اللغة العربية أو أي لغة أخرى، فكان الوثائقي مغامرة حقيقية خاضها المخرج لإفناء التونسي بقيمة هذا الموروث وفرائه.

واعتبر بعض النقاد أن فيلم «على خطاوي الحرف» الذي صور جزءاً من شخصية التونسي الثقافية ووثق فكرها وتاريخها، قادر على أن يكون مادة بحثية من شأنها الإسهام في الحفاظ على موروث لا مادي مُهدّد بالغياب، كما يمنع انحصار هذا الفن الشفوي على رقعة جغرافية ضيقة يتناقلها أهاليها كالأساطير، فأتى محمد صالح العرقي ليوثّق الكلمات المُتناثرة على رمال الصحراء المُمتدة بالصورة والصوت، ويحافظ عليها من السراب.

ورغم أن الشعر ليس حكرًا على الرجل في مدينة دوز التي حفلت بالضرورة بالكثير من الشاعرات، حتى أن أهل الجهة يعتبرون أمهاتهم ونساءهم شاعرات بالفطرة، إلا أن المخرج لم يظهر المرأة الشاعرة، واكتفى بمرور قصير للشاعرة عائشة الجباهي، دون أن يعرف بها أو يحاورها، فمَرّ القأؤها كمتنمّ ليدكور الفيلم، ليس أكثر.

واكتفى العرقي بالشعراء علي لسود المرزوقي والعبدى بن بلغيث وسالم بن عمران، ليصورهم كثلاثة من كبار مدينة دوز وقبيلة المرازيق، فهم بكلماتهم سيوف تزدود عن الحرمان وتفكّ حق المظلوم، وهم بأصواتهم صروح شامخة على وجه كل ظالم، حتى أن الشاعر علي لسود المرزوقي ذاع صيته في دول الجوار كليبيا والجزائر ومصر، وهو الذي كان مدافعا شرسا عن كل عربي أينما كان.

من هناك ابتعد المخرج عن شعرهم السياسي المقاوم والثائر، وربما يعدّ ذلك توافقاً مع اختياره «على خطاوي الحرف» عنواناً لفيلمه الذي أرادته تتبعا لمسيرة إنسان شاعر مرّ موهبته لابنه البيولوجي، أو لإبناء بيتته التي منها ينحدر.

تصحيح مسار

اختار المخرج أن يوثّق مقتطفات من برنامج إذاعي للإعلامية التونسية أماني بولعراس، وهي التي تعمل منذ سنوات على إقفاء أثر الإبداع التونسي أينما كان، فكان حضورها في الفيلم كحاوره تكشف أسرار عالم المرازيق الشعري، وكشاهدة على فنّ تونسي ذي طابع خاص، وكلمة لفظ غزلي يضفي بعض الود على بيئة الفيلم الصحراوية القاسية صورة ومعنى.

التي حفظها التونسيون وأحبوها بعد سنوات من ولادتها في «بئر المرازيق». ويكي أيضاً، وهو يرى الشاعر علي لسود يرثي نفسه عبر مرثية كتبها والقاهها قبل موته بحوالي خمس سنوات في جمع من الناس، فيترجمون عليه وهو واقف بينهم، قائلاً «أنا متت يجعلها البراكسة/ فيكم منيش تنوصيكم قولوا على كيف ميواتيكم» ليردّ بعضهم «الله يرحمك».

واكتفى العرقي بالغوص في عالم الشعراء الثلاثة، مع الحديث عن الشاعر التونسي البشير عبد العظيم وتجربة علي بن ناجي ابن المرحوم الشاعر بوبكر بن ناجي، فوثق البعض من تفاصيل حياتهم، لكنه لم يكشف للمشاهد معلومات أكثر عن الشعر الشعبي التونسي، وعن بحوره وأغراضه الشعرية، ولم يختر من القصائد إلا تلك التي تغوص في حياة الشعراء الخاصة.

إكرام الأشقر: الحراك اللبناني سيخلق حركة مسرحية قوية

وأشادت الأكاديمية اللبنانية بتجربة «مسرح إسطنبولي» و«جمعية تيرو للفنون» بمدينة صور ورات أنها تجربة فنية خاصة ومتميزة وحققت نجاحاً لافتاً، رغم كل المعوقات والصعوبات التي تواجهها.



إكرام الأشقر
هناك أباد خارجية تسعي لتهميش المسرح العربي

وأشادت أيضاً بمهرجان «أيام صور الثقافية» الذي انطلقت نسخته الأولى في شهر يناير الماضي على المسرح الوطني اللبناني بمدينة صور، بهدف إحياء التراث الثقافي والفني والحضاري للمدينة من خلال العروض الفنية وإقامة معارض للحرفيات والأشغال اليدوية والرسومات والصور الفوتوغرافية وعروض الأفلام السينمائية والمسرحية والموسيقية.

يذكر أن إكرام الأشقر أكاديمية وباحثة لبنانية تقوم بتدريس مادة النقد المسرحي بكلية الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية، وحاصلة على درجة الدكتوراه في المسرح من الجامعة اليسوعية بلبنان، وتمارس فن الرسم إلى جانب تدريس المسرح وإنجاز الدراسات المسرحية، ولها كتاب «الرقص لغة الجسد» وكتاب «مسرح سعيد تقي الدين بين التنظير والتطبيق»، وسبقت لها المشاركة في الكثير من المؤتمرات المعنية بقضايا المسرح، والمعارض والملقبات التشكيلية في كل من لبنان ومصر والإمارات والعراق وسوريا وكندا والولايات المتحدة وفي بلدان عديدة أخرى.

يُعرف بالمسرح الطائفي أو الجهوي أو المناطقي، فصار لكل منطقة ولكل جماعة مسرحها الخاص. لكن وخلال العقد الأخير، تضيف الأكاديمية اللبنانية، «بدأ المسرح اللبناني يستعيد مكانته و دوره الوطني ويحايك هموم الناس ويجذب جمهوراً كبيراً من كل أطراف الشعب، وليس من النخب والطبقات المثقفة فقط».

وأكدت على وجود أباد خارجية تعمل على إلغاء الفن بصفة عامة والفعل المسرحي بصفة خاصة في العالم العربي، بهدف إلغاء الهوية العربية، في إشارة إلى أن الفن هو أحد أسلحة الحفاظ على الهوية الوطنية للشعوب. وحول تأثير الثورة التي شهدتها لبنان مؤخراً على المسرح ببلادها أكدت على أن تلك الثورة التي شاركت فيها كل الفنون اللبنانية ستخلق حركة مسرحية قوية، وستظهر تجلياتها على كل الفنون بلبنان، لكن تلك الحركة تحتاج إلى بعض الوقت للضج، مضيئة أن الجيل الجديد في لبنان أصبح أكثر قدرة على تحمل مسؤولياته الفنية والوطنية.

ورات أن المسرح في لبنان له مستقبل جيد، خاصة مع الإقبال الكبير على دراسة فنون المسرح بالجامعات اللبنانية، وهو أمر لم يكن موجوداً في السابق، وهذا الإقبال على دراسة المسرح سيسهم في خلق حالة من التنافس الفني، متمنية أن يغترف ذلك الجيل الجديد من المسرحيين في لبنان من التراث ومن ينابيع ومفردات حضارة العرب والشرق برؤية فنية معاصرة تجمع الأصالة والمعاصرة.

من إخراج ونصوص وغير ذلك. وأن الباحث في تاريخ المسرح العربي زحماً وحضوراً قوين للمسرح العربي بين بقية الفنون، وأما المتابع للمشهد المسرحي العربي الراهن فلن يجد شيئاً لافتاً.

حول تأثير الحروب والثورات على فن المسرح، قالت إكرام الأشقر إنه بالرغم من الحروب والأزمات التي مرّ بها وطنها لبنان، فإنه شهد ظهور حركات مسرحية ريفية نجحت في معالجة الواقع اللبناني برغم كل الإصم، وتمكنت من تجسيد الواقع على خشبة المسرح بكل قوة، وأن من بين الذين كانت لهم بصمات قوية على مسيرة المسرح اللبناني نجد جلال خوري ونبية أبو الحسن وزبيد الرحباني وروجيه عساف ونضال الأشقر، وغيرهم كثير.

وأشارت إلى أن هناك وجوهاً مسرحية عربية ولبنانية قدّمت الكثير لمسيرة المسرح العربي، لكنها لم تحظ بما تستحق من ظهور ومن تسليط للضوء على أعمالها ومسيرتها المسرحية مثل مسرح سعيد تقي الدين الذي تميز بالثراء الفكري والثقافي، مشيرة إلى قيامها بإعادة تقديمه وتقديم مسرحياته في كتاب خاص حمل عنوان «مسرح سعيد تقي الدين بين التنظير والتطبيق»، والذي جاء في 626 صفحة.

كما رأت أن الحرب الأهلية التي جرت على أرض لبنان قبيل عقود كانت لها تأثيرات متباينة على الحركة المسرحية بالبلاد، فقد أسفرت تلك الحرب بعد نهايتها عن ظهور حركة مسرحية نشطة، لكنها أسهمت أيضاً في ظهور ما

وأضافت الأشقر، التي تشارك في معرض يقام حالياً بكلية الفنون في مدينة الأخص، أن المسرح هو مرآة المجتمع، وهو القادر على صياغة صورة حضارية لمجتمعاتنا، وأن على الحكومات العربية دوراً كبيراً في استعادة الدور الغائب لفن المسرح العربي.

كما رأت أن المسرح العربي بوجه عام شهد في ستينيات القرن الماضي نهضة مسرحية كبيرة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم، وأن المسرح اللبناني شهد في تلك الفترة المهمة من تاريخ المسرح العربي انفتاح المسرحيين على أوروبا والعالم العربي، وأنجزوا دراسات في كل ما يتعلق بالمسرح

تختلف آراء نقاد الفن حول واقع المسرح العربي في وقتنا الراهن، بين من يراه في أوجه، وآخر يعتبره يعيش ذروة تدهوره شكلاً ومضموناً، سواء في مستوى الكتابة أو الإخراج والسينوغرافيا، بل وحتى على مستوى اللعب المسرحي، إلا أن الأكاديمية والنقاد اللبنانية إكرام الأشقر تذهب في تقييمها إلى أبعد من ذلك، معتبرة أن هناك أيادي خارجية تعمل على تهميش الفعل المسرحي بالوطن العربي بهدف إلغاء الهوية العربية.

حجاج سلامة

الأخص (مصر) - قالت إكرام الأشقر، الأكاديمية وأساتذة النقد المسرحي بالجامعة اللبنانية، إن المسرح العربي يعيش حالة من التراجع رغم الطاقات المسرحية العربية الكبيرة، مع توفر



«مسرح إسطنبولي» تعتبر الأشقر من التجارب المميزة في لبنان